

مقارنة بين أسلوب الحديث النبوي
وأسلوب القرآن الكريم

مصطفى أحمد الزرقا

اسم الكتاب: مقارنة بين أسلوب الحديث النبوي

وأسلوب القرآن الكريم

اسم المؤلف: مصطفى أحمد الزرقا

الترقيم الدولي: 978-977-6666-60-3

محفوظات
جميع الحقوق

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع « محفوظة لدار
المحرر الأدبي للنشر والتوزيع المشهرة برقم 24821 بتاريخ
2015/10/1. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.
وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر أو تخزينه في نطاق
استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية
مكتوبة من الناشر يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة
الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

الفرق عظيم جدا بين أسلوب الحديث النبوي وأسلوب القرآن في طريقة البيان العربي. فبينهما شقة واسعة لا يشبه أحدهما الآخر لدى أهل البصر باللغة وأساليبها، وبالمأثور المؤلف من بيانها قديمه وحديثه. وإن هذا التفاوت الكبير في الأسلوبين إذا أنعم الإنسان فيه النظر وكان ذا ملكة بيانية لا يترك لديه مجالاً للشك والريبة في أن الحديث النبوي والقرآن صادران عن مصدرين مختلفين.

فالحديث النبوي كما سنرى في نصوصه التي سنعرض أمثلتها قريباً جاء كله على الأسلوب المعتاد للعرب في التخاطب، تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهم والتعليم والخطابة في صورها ومناهجها المؤلفوة لدى العرب، ويعالج جزئيات القضايا والمسائل ويجيب عنها، ويحاور ويناقش كما يتخاطب سائر الناس بعضهم مع بعض. ولكن يتميز من الكلام العربي المؤلف بأن فيه لغة منتقاة غير نائية. وأن فيه إحكاماً في التعبير وجمعاً للمعاني المقصودة بأوجز طريق وأقربه دون حشو، مما استحق به التسمية بجوامع الكلم. فهو كلام عربي من الطراز المعتاد المؤلف ولكنه على درجة عليا من أساليب البلغاء المعهودة.

أما أسلوب القرآن فهو أسلوب مبتكر لا يجد الناظر فيه والسامع شبيهاً له فيما يعرف من كلام العرب وأساليبهم. يعالج الكليات، ويفرض الأحكام، ويضرب الأمثال، ويوجه المواعظ، في عموم لا تشبهه العمومات المؤلفوة، وخطاب فيه من التجريد ما يجعل له طابعاً منقطع النظير.

وإذا أخذ كتاب تاريخ وقورن بما في القرآن من قصص تاريخي لما وجد أيضا بينهما شبه في الأسلوب ولو أنهما عالجا قصة واحدة. ولو أخذ كذلك كتاب مواعظ وأخلاق وقورن بما في القرآن من مواعظ لما كان بينهما أيضا شبه أصلا في الأسلوب ولو اتحد الموضوع. وهكذا لا يمكن أن يجد الباحث كلاما أو كتابا في اللغة العربية يمكن أن يتحد أو يتشابه أسلوبه وأسلوب القرآن. فهو صورة جديدة مبتكرة في البيان العربي جارية على قواعد العرب وطريقتهم في التركيب، ولكنه يختلف عنها كل الاختلاف فيما نسميه بالأسلوب، بحيث إنك لو خلطت سورة أو جملة آيات بمجموعة أخرى من كلام العربي لاستطعت أن تميزها منها بسهولة.

(أما الحديث النبوي فأسلوبه يختلف كل الاختلاف عن أسلوب القرآن ويمكن أن يشتهه أسلوبه بأساليب البلغاء ولذلك كثيرا ما توضع الأحاديث كذبا على لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من حيث لفظها ومعناها على السامع العادي ولهذا كان التحقق عن صحتها لدى رجال الحديث يكاد ينحصر في البحث عن السند).

ومن المسلم به لدى أهل البصر الأدبي أنه من المتعذر على الشخص الواحد أن يكون له أسلوبان في بيانه يختلفان اختلافا كبيرا أحدهما عن الآخر ويجري كل منهما في ذاته على نسق متشابه لا يختلف في درجة بلاغته وطريقته، ويختلف عن أسلوبه الآخر اختلافا كلياً، فهذا مما لم يعهد في التاريخ الأدبي المعروف. بل إذا أراد أحد الكتاب أن يخرج عن الأسلوب الذي هو متميز فيه إلى أسلوب آخر

فلا بد أن يظهر فيه التكلف، ولا يمكن أن يتقن ذلك الأسلوب الثاني، فما بالك بهذا التفاوت الكلي بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث؟. فمن يتوهم من الأجانب أن القرآن هو مجموعة من تأليف النبي عليه السلام إلى جانب أحاديثه إنما منشأ وهمهم هذا عدم إمكانهم أن يتذوقوا الفارق العظيم بين الأسلوبين لكي يعرفوا إمكان وحدة المصدر فيهما أو اختلافه.

هذا الاختلاف الواسع المدى بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي الذي يوجب الحكم باختلاف مصدرهما يتجلى واضحا لكل ذي إدراك في الأسلوب العربي وذوق في لسان العرب من المقارنة بالأمثلة الواردة منهما في موضوع واحد.

فلو أننا أخذنا من القرآن آيات، ومن الحديث النبوي أحاديث في موضوع تلك الآيات نفسه، لرأينا بهذه المقارنة من اختلاف الأسلوبين الحاكم باختلاف المصدر ما فيه البرهان الكافي:

١ - فلنأخذ مثلا قول الحق جل وعلا في موضوع الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

[سورة آل عمران: 104]

ولننظر مقابله في المعنى نفسه قول النبي عليه الصلاة والسلام.

«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم¹».

٢ - ولتأخذ مثلاً في موضوع الإخاء في الدين قول الله العظيم في

سورة الحجرات:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا

اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ [سورة الحجرات: 10]

ولننظر مقابله في نفس المعنى قول النبي عليه السلام.

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه²».

ومعنى (يسلمه) أن يتركه لعدوه فلا يحميه ولا يمنع منه.

٣ - ولتأخذ أيضاً قول الخالق العظيم في موضوع الإخاء الإنساني

العام والتآلف والتفاضل والصلاح، لا بالعرق والنسب، ولا بالمال

والنسب:

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَدَّرُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [سورة الحجرات: 13]

1 مسند أحمد بن حنبل (٥ / ٣٩٠).

2 صحيح البخاري المظالم والغصب (٢٤٤٢)، صحيح مسلم البر والصلة والآداب

(٢٥٨٠)، سنن الترمذي الحدود (١٤٢٦)، سنن أبو داود الأدب (٤٨٩٣)، مسند أحمد

بن حنبل (٢ / ٩١).

ولننظر في المعنى نفسه أقوال النبي عليه السلام التالية.
«أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم
من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي ولا
لأحمر¹».

«من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه²».

«المؤمن آلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف³».

٤ - ولنأخذ أيضاً قول الله سبحانه في ارتباط صلاح الحياة
الاجتماعية بنظام العقوبة على الجنايات:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ [سورة البقرة: 179]

ولننظر في مقابله قول النبي - عليه السلام.

«إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحا⁴».

1 مسند أحمد بن حنبل (٥ / ٤١١).

2 صحيح مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٩)، سنن الترمذي
القراءات (٢٩٤٥)، سنن ابن ماجه المقدمة (٢٢٥)، مسند أحمد بن حنبل (٢ / ٢٥٢)،
سنن الدارمي المقدمة (٣٤٤).

3 مسند أحمد بن حنبل (٢ / ٤٠٠).

4 سنن النسائي قطع السارق (٤٩٠٥)، سنن ابن ماجه الحدود (٢٥٣٨)، مسند

أحمد بن حنبل (٢ / ٤٠٢).

٥ - ولتأخذ أيضا قوله سبحانه في وجوب أداء الأمانة والحكم

بالعدل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [سورة النساء: 58] ولننظر في مقابلة أقوال النبي عليه السلام.

«أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك¹».

«ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلم يعدل

فيهم إلا كبه الله في النار».

«لا تقدر أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من

القوي غير متتع²».

وهكذا إذا تقصينا الموضوعات والمعاني التي وردت في القرآن وفي

الحديث معنا نجد بينهما في الأسلوب العربي هذا البون الكبير الذي يجزم

مع كل ذي بصر وإنصاف أن شخصا لا يمكن أن يصدر عنه هذان

الأسلوبان معا، ولكل منهما طابعه الخاص البعيد كل البعد عن الآخر،

وكل منهما في ذاته وفي جميع أمثله ونصوصه متشابه لا يختلف، بل

1 سنن أبو داود البيوع (٣٥٣٤)، مسند أحمد بن حنبل (٣/ ٤١٤).

2 القدس بضمّتين: الطهر (المصباح المنير) أي لا تطهر وتتنزه من العلل والمفاسد.

يجري على غرار واحد فيحافظ على طريقتة المتميزة، وعلى اختلافه عن غيره ذلك الاختلاف الكبير.

وإنه ليتجلى من هذه الأمثلة المقارنة ومن نظائرها ما أشرنا إليه آنفا من أن أسلوب الحديث النبوي هو أسلوب التخاطب العادي المؤلف بين العرب في بيانهم وأحاديثهم ومحاوراتهم وحكمهم وأحكامهم ووصاياهم، ونصائحهم، لا يخرج عن هذا السنن المؤلف بينهم، وإنما يمتاز بأنه من جوامع الكلم ومن حكيم البيان وفصيح اللغة، وبخلوه من الحشو ومن الصور الخطابية العاطفية التي تعتمد على العاطفة وحدها دون العقل.

وبتعبير آخر: أنه يتجلى في أسلوب الحديث النبوي العقل الناطق بأبلغ وأوجز تعبير معتاد. أما أسلوب القرآن فيتجلى فيه الابتكار الذي لم يعهد له مثيل، ولا يشبهه شيء من كلام العرب في طرائق بيانه ومناهج خطابه.

اختلاف الأسلوب ينم عن اختلاف الذاتية

هذا وإذا كان كل أسلوب بياني يشف عن ذاتية وشخصية في المتكلم فمن وراء ذلك التفاوت العظيم في أسلوب القرآن والحديث النبوي من الوجهة البيانية يستشف القارئ والسامع تفاوتاً أعظم منه في هذه الذاتية التي ينبئ عنها الكلام.

فعندما تسمع القرآن تتجلى لك من خلال آياته ذاتية تتكلم من جو علو وقوة، ووسطوة، وقدرة، وحكمة ورحمة. وهذه الذاتية القوية العظمى التي تتجلى من وراء أسلوب القرآن لا تضعف حتى في المواطن التي تعبر فيها عن الرحمة، وأن قوتها واحدة في جميع سوره وآياته. فهي دائماً ذاتية جبارة قادرة منتقمة عادلة حكيمة رحيمة، آخذة بزمامين من الترغيب والترهيب، ذات سلطان مطلق.

فانظر وتصورها مثلاً من خلال نحو الآيات التالية:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ﴾ [سورة البقرة: 257] ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا

مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

[سورة الإسراء: 16] ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَانًا﴾ [سورة الإسراء: 23] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا

لَهُوَ حَافِظُونَ ﴿٩﴾ [سورة الحجر: 9] ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿ [سورة البقرة: 255] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿ ﴿ [سورة الأنبياء: 107] ﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا
أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿ ﴿ [سورة
فاطر: 44] ﴿ وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ
عَلَى ظَهْرهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَأَبَتْ اللَّهُ كَانَ يَعْبَادِيهِ
بَصِيرًا ﴿ ﴿ [سورة فاطر: 45] ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿ ﴿ [سورة
الحشر: 22] ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ
السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ ﴿ [سورة الحشر: 23] ﴿
هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ

يَسْبِحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

﴿٢٤﴾ [سورة الحشر: 24]

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ [سورة يس: 77] ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ [سورة يس: 78] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ

بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٧٩﴾ [سورة يس: 79]

أما الحديث النبوي فإنك تشعر من وراء أسلوبه بشخصية بشرية، وذاتية يعتريها الضعف والقوة فكثيرا ما تشعر من أسلوب الحديث النبوي بشخصية تعترض بهذا الضعف الذاتي أمام الله، إلى جانب اعتزازها بقوة الأمانة والثقة بالحق، ففيها ضراعة البشر وتواضع الزهاد، إلى جانب حكمة العلماء وقوة المبلغين الأمناء. فانظر وتصور هذه الشخصية في لون قوتها من خلال قول الرسول عليه السلام لعمه أبي طالب حينما هددته قريش فنصحته بترك الدعوة.

قال - صلى الله عليه وسلم: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وتصورها في شعورها بالضعف الذاتي من خلال الأدعية المأثورة
عن النبي عليه الصلاة والسلام في مناجاة ربه، كقوله بعدما خرج لدعوة
ثقيف وعاد بالأذى والخذلان؟

وقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على
الناس، يا أرحم الراحمين إلى من تكلمي؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب
ملكته أمري، إن لم تكن ساخطا علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع
لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السماوات والأرض،
وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تحل علي
غضبك أو تنزل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا
قوة إلا بك».

وقال: «اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع
بها شملي وتلم بها شعثي وترد بها الفتن عني¹».

وبعد فهذه مقارنة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي
إنما نقصد بها الموازنة بين الأسلوبين من الناحية العربية البيانية فقط، وما
توحي به من اختلاف الذاتية والشخصية مما يدل على اختلاف
المصادر دون النظر إلى النواحي التي يذكرها العلماء والأدباء الباحثون
في وجوه إعجاز القرآن المتعددة لأنها تخرج عن موضوعنا هنا.

1 (أفضية الرسول) للقرطبي ص ١٢٣.